بنت الباشا...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كانت هذه المرأةُ وضّاحةَ الوجه زهراءَ اللون كالقمر الطالع، تحسبُها لجمالها قد غذّتها الملائكةُ بنور النهار، وروّتها من ضوء الكواكب

وكانت بَضّةً مُقَسَّمةً أبدعَ التقسيم، يلتفُّ جسمُها شيئاً على شيء التفافاً هندسياً بديعاً، يرتفع عن أجسام الغيد الحسان، أُفرِغَ فيها الجمالُ بقدر ما يُمكن — إلى أجسام الدُّمى العبقرية التي أُفرغ فيها الجمالُ والفنُّ بقدر ما يستحيل

وكانت باسمةً أبداً كأوّل ما يتلألأ الفجر، حتى كأن دمها الغَزَليَّ الشاعرَ يصنعُ لثغرها ابتسامتها، كما يصنعُ لخدّيها حُمرتَهما

ما لها جلست الآن تحت الليل مُطرقةً كاسفةً ذابلة، تأخذُها العينُ فتشكُّ أن هذا الوجهَ قد كان فيه مَنْبَعُ نورٍ وغاض! وأن هذا الجسمَ الظمآنَ المعروقَ هو بُقْعَةٌ من الحياة أُقيمَ فيها مأتم!

ما لهذه العين الكحيلة تُذْرِي الدمعَ وتسترسلُ في البكاء وتَلِجُّ فيه، كأن الغادةَ المسكينةَ تُبصر بين الدموع طريقاً تُفضي منه نفسُها إلى الحبيب الذي لم يَعُد في الدنيا؛ إلى وحيدِها الذي أصبحتْ تراه ولا تلمسه، وتكلّمه ولا يَرُدُّ عليها؛ إلى طفلها الناعمِ الظريفِ الذي انتقل الى القبر ولن يرجع، وتتمثّلُه أبداً يريد أن يجيء اليها ولا يستطيع، وتتخيلُه أبداً يصيح في القبر يناديها «يا أمي، يا أمي..»

قلبها الحزينُ يقطّع فيها ويُمزّقُ في كل لحظة؛ لأنه في كل لحظة يريد منها أن تضمّ الطفل الى صدرها، ليستشعرَه القلبُ فيفرحَ ويتهنّأ إذ يمسُّ الحياةَ الصغيرةَ الخارجةَ منه. ولكن أين الطفل؟ أين حياةُ القلبِ الخارجةُ من القلب؟

لا طاقة للمسكينة أن تُجيب قلبَها إلى ما يطلب، ولا طاقة لقلبها أن يَهْدأ عمّا يطلب؛ فهو من الغيظ والقهر يحاولُ أن يُفجّرَ صدرَها، ويريد أن يدقّ ضلوعَها، ليخرجَ فيحثَّ بنفسه عن حبيبه!

مسكينةٌ تَتَرَنّحُ وتتلوّى تحت ضرباتٍ مُهْلِكَةٍ من قلبها، وضرباتٍ أخرى من خيالها، وقد باتت من هذه وتلك تعيش في مثل اللحظة التي تكون فيها الذبيحةُ تحت السكّين. ولكنها لحظةٌ امتدّت الى يوم، ويومٌ امتد الى شهر. يا ويلَها من طول حياة لم تَعُدْ في آلامها وأوجاعها إلا طولَ مدّة الذّبح للمذبوح

ولو كان للموت قِطارٌ يقف على محطّةٍ في الدنيا، ليحملَ الأحبابَ إلى الأحباب، ويسافرَ من وجود الى وجود، وكانت هذه الأمُّ جالسةً في تلك المحطة منتظرة تتربص، وقد ذُهِلت عن كل شيء، وتجردت من كل معاني الحياة، وجمدت جمودَ الانتقال الى الموت — لما كانت إلا بهذه الهيئة في مجلسها الآن في شرفتها من قصرها؛ تُطلّ على الليل المظلم وعلى أحزانها...!

* * *

هي فلانة بنت فلان باشا وزوجة فلان بك. تَرادَفَت النِّعمُ على أبيها فيما يَطلبُ وما لا يطلب، وكأنما فَرَغَ من اقتراحه على الزمان واكتفى من المال والجاه، فلم يُعجب الزمانَ فأخذ يقترحُ له ويصنع ما يقترح، ويزيدُه على رغمه نعماً تتوالى!

وكان قد تقدم إلى خِطبة ابنته شابٌّ مهذّب، يملك من نفسه الشبابَ والهمةَ والعلم، ومن أسلافه العنصرَ الكريم والشرفَ الموروث، ومن أخلاقه وشمائله ما يُكابِرُ به الرجالَ ويُفاخر. يَبْدَ أنه لا يملك من عيشه إلا الكَفافَ والقِلّة، وأملاً بعيداً كالفجر وراء ليلٍ لا بد من مُصابرته الى حين يَنْبَثِقُ النور

وتقدم صاحبنا الى الباشا فجاءه كالنجم عارياً؛ أي في أزهى نُورانيّته وأضْوَئِها. وكان قد عَلِقَ الفتاةَ وعُلّقتْه، فظنّ عند نفسه أن الحب هو مالُ الحب، وأن الرجولة هي مالُ الأنوثة، وأن القلوب تتعامل بالمبرّات لا بالأموال؛ ونسي أنه يتقدم الى رجلٍ ماليّ جعلتْه حَقارةُ الاجتماع رُتبة، أو الى رتبةٍ ماليّة جعلتها حقارةُ الاجتماع رجلاً.. وأنّ كلمة «باشا» وأمثالها، إنما تخلّفت عن ذلك المذهب القديم: مذهب الألوهية الكاذبة التي انتحلها فرعونُ وأمثالُه، ليتعبّدوا الناسَ

منها بألفاظ قلوبهم المؤمنة ؛ فاذا قيل « إلـه » كان جواب القلب : « عزّ وجلّ » ، « سُبْحانه »

ولما ارتقى الناسُ عن عبادة الناس ، تلطّفتْ تلك الألوهيةُ ونزلت إلى درجات إنسانية ، لتتعبّد الناسَ بألفاظ عقولهم الساذجة ؛ فان قيل «باشا» كان جواب العقل الصغير : « سعادتلو أفندم [1] ! »

نسى الشاب أنه « أفندى » سيتقدم إلى « باشا » وأعماه الحبُّ عن فَرْق بينهما ؛ وكان سامىَ النفس ، فلم يدرك أن صغائر الأمم الصغيرة لابد لها أن تنتحل السموَّ انتحالاً ، وأن الشعب الذى لايجد أعمالاً كبيرة يتمجّد بها ، هو الذى تخترع له الألفاظُ الكبيرة ليتلهّى بها ؛ وأنه متى ضعف إدراكُ الأمة ، لم يكن التفاوتُ بين الرجال بفضائل الرجولة ومعانيها ، بل بموضع الرجولة من تلك الألفاظ ؛ فان قيل « باشا » فهذه الكلمة هى الاختراعُ الاجتماعى العظيم فى أمم الألفاظ ، ومعناها العلمىّ : قوةُ ألف فدان أو أكثر أو أقل ؛ ويقابلها مثلاً فى أمم الأعمال الكبيرة لفظ « الآلة البخارية » ومعناها العلمى قوة كذا وكذا حصاناً أو أقلّ أو أكثر !

نسى هذا الشاب أن « أمم الأكل والشرب » فى هذا الشرق المكين ، لاتتم عظمتها إلا بأن تضع لأصحاب المال الكثير ألقاباً هى فى الواقع أوصافٌ اجتماعيةٌ للمَعِدة التى تأكل الأكثر والأطيب والألذّ ، وتملك أسباب القدرة على الألذّ والأطيب والأكثر

وتقدم (الأفندى) يتودّد إلى (الباشا) ما استطاع ، ويتواضع وينكمش ، ولا يألوه تمجيداً وتعظيماً ؛ ولكن أين هو من الحقيقة ؟ إنه لم يكن عند الباشا إلا أحمق ؛ إذ لم يعرف أن تقدّمه إلى ذلك المقام العظيم كان أولُ معانيه أن كلمة « أفندى » تطاولت إلى كلمة « باشا » بالسبّ عَلَنا . . . !

* * *

وانقبضوا عن (الأفندى) وأعرضوا عنه إعراضاً كان معناه الطرد ؛ ثم جاء (البك) يخطب الفتاة

و « بك » مَنْبَهَةٌ للاسم الخاطب ، وشرفٌ وقَدْرٌ وثناءٌ اجتماعى ، وذِكْر شهير ، وإرغامٌ على التعظيم بقوة الكلمة ، ودليلٌ على الحُرُمات اللازمة للاسم لزومَ السواد للعين ، ولو لم يكن تحت (بك) رجل ، فان تحتها على كل حال (بك) . . . ! وأنعَمَ له الباشا ، ووصل يَده بيد ابنته فألبَسَها وألبَسَتْه ، وأعلمها أبوها أنه قد خَفَضَ عن البك فاذا هو (بك) قوة مائتى فدان . . . ! أما الأفندى فظهر من الفحص الهندسى الاجتماعى أنه (أفندى) قوة خمسة عشر جنيها فى الشهر . . !

وخَنَسَ الأفندى وتراجَعَ مُنْخَزِلاً ، وقد علم أن (الباشا) إنما زوّج لقبَه قبل أن يزوج ابنته ، وأنه هو لن يملك مهرَ هذا اللقب إلا إذا ملك أن يُبدّلَ أسباب التاريخ الاجتماعى فى الأمم الضعيفة ، فينقلَ إلى العقل أو النفس ما جعلتْه « أمم الأكل والشرب » من حق المعدة ، فلا يكون (باشا) إلا مخترعٌ شرقىٌّ مُفْلِس ، أو أديبٌ عظيمٌ فقير ، أو مَن جرى هذا المجرَى فى سموّ المعنى لا فى سموّ المال

وقدّمت مِائتا القدانِ مهرها «الطّينىّ» العظيم بما تعبيرُهُ فى اللغة الطينيّة : ثمنُ عشرين ثوراً ، ومثلِها جاموساً ، ومثلِها بغالاً وأَحميرة ، وفوقها مائةُ قنطارٍ قطناً ، ومائة أردبٍ قمحاً ، ثم ذرةً ، ثم شعيراً . والمجموعُ الطينىُّ لذلك ألفُ جنيه ، وعزّى الباشا أنه مستطيعٌ أن يقول للناس : إنها خمسة آلاف ، اختزلها الأزْمة قبحَها الله . . . !

ثم زُفّت « بنت الباشا » زِفافاً طينياً بهذا المعنى أيضاً ، كان تعبيرُهُ : أنه أنفق عليه ثمنُ ألفِ قنطارٍ بصلاً ، ومائةِ غرارةٍ من السَّمَاد الكيماوى ، كأنما فُرِش بها الطريق . . . !

وطفق الباشا يُفاخر ويتمدّحُ ، ويَتَبَذّخُ على الأفندى وأمثالِ الأفندى بالطين ومعانى الطين ؛ فردّت الأقدار كلامَه عليه ، وجعلت مَرْجِعَه فى قلبه ، وهيّأتْ لبنت الباشا معيشة « طينية » بمعنىً غيرِ ذلك المعنى . . .

* * *

ومات الطفل ؛ فردّت هذه النكبةُ بنتَ الباشا إلى معانى انفرادِها بنفسها قبل الزواج ، وزادتها على انفرادها الحزنَ والألم ؛ وألقت الأقدارُ بذلك فى أيامها ولياليها التراب والطين

(١) هذه ألقاب وضعتها الدولة العثمانية البائدة . فأفسدت الناس بكبرياء الألفاظ الفارغة ، وقد أرادت بها رفع الأعلى ، فانتهى أمرها إلى سقوط الأعلى والأسفل

ولجّ الحزنُ ببنت الباشا فجعلت لا ترى إلا القبر ولا تتمنى إلا القبر ، تلحق فيه بولدها ؛ فوضعت الأقدار من ذلك فى روحها معنى الطين والتراب

وأسقم الهمُّ بنتَ الباشا وأذابها ؛ فنقلت الأقدار إلى لحمها عملَ الطين ، فى تحليله الأجسامَ وإذابتها تحت البِلَى

* * *

وكان وراء قصرها حِواء[1] يأوى اليه قوم من « طين الناس » بنسائهم وعيالهم ، وفيهم رجلٌ « زبّال » له ثلاثة أولاد ، يراهم أعظمَ مفاخره وأجل آثاره ، ولا يزال يرفع صوته متمدّحاً بهم ، ويخترع لذلك أسباباً كثيرة لكي يسمعه جيرانه كل ليلة مُفاخِراً ، مرة بأحمد ، ومرة بحَسن ، ومرة بعَلي . وأعجَبُ أمره أنه يرى أولاده هؤلاء متمثّلين فى الطبيعة لأولاد « الباشوات » . . . وهو يحبهم حبَّ الحيوان المفترس لصغاره ؛ يرى الأسدُ أشبالَه هم صنعةَ قوّته ، فلا يزال يحوطُهم ويتمثّلهم ويرعاهم ، حتى إنه ليقاتل الوجودَ من أجلهم ؛ إذ يشعر بالفطرة الصادقة أنه هو وجودهم ، وأن الطبيعة وهبت له منهم مسرّاتِ قلبه ، ذلك القلبِ الذى انحصرت مسرّاته فى النسل وحده ، فصار الشعورُ بالنسل عنده هو الحبَّ الى نهاية الحب . وكذلك الزبّال الأسد[2]

ومن سخرية القدر أن زبّالنا هذا لم يسكن الحِواء إلا فى تلك الليلة التى جلست فيها بنت الباشا على ماوصفنا ، وفى ضلوعها قلب يُفتّتُ من كبدها ، ويُمزّق من أحشائها

وبينا تُناجي نفسها وتَعجَب من سخرية الأقدار بالباشا والبك ، وتَستحقِرُ أباها فيما أقدم عليه من نبذ كُفئها لعجزه عن مهر باشا ، وإيثارِ هذا المهر الطينيّ ، وتباهيه به أمام الناس ، واندِرائه بالطّعن على من ليس له لقب من ألقاب الطين — بَيْنا

(١) الحواء : جماعة من البيوت كهذه العشش التى يسكنها الصعايدة فى بعض الاحياء

(٢) هذا الزبال شخصية حقيقية ، لو قلنا بمذهب الرجعة لكان « أرسطو » رجع زبالا ليتم فلسفته . والكاتب يعرف الرجل ويجره أحياناً ، وكان حضرته قد طلب الينا أن نصنع له (موالا) يتغنى به فى (أوقات الصفاء) فوضعنا له الاغنية التى يراها القارىء بعد وهو يصدح بها فى لياليه . وسنفرد لزبالنا هذا مقالا خاصاً ان شاء الله

كذلك إذا بالزبال ، كانس التراب والطين يهتف فى جوف الليل ويتغنى :

يا ليل ، يا ليل ، يا ليـــل ما تنجلي يا ليـــل

* * *

القلب أهو راضي لكْ حمدى يا ربى
من الهموم فاضي إفرحْ لى يا قلبى

يا دُوبْ كِدا يا دُوبْ زَىّ الحمامْ عايشْ
ما بمتلكْ غيرْ توبْ طُولْ عمرُه فيهْ نافشْ...
يا ليل ، يا ليل ، يا ليـــل ما تنجلي يا ليـــل

* * *

إن قلت أنا فرحان فا مين يكدّبني
وأكترْ من السلطانْ فرحانْ أنا بابني

بين السيوف يا ناسْ لم أنكسرْ سيفى
وابن الغنى يحتاسْ وانا على كيفى . . . .
يا ليل ، يا ليل ، يا ليـــل ماتنجلي يا ليـــل

* * *

وابن الغنى فى هموم والخالى خالى البالْ
والفقر ما بيدُومْ وتدُومْ هموم المالْ

يا طيرْ يا طيرْ ، يا طير الحرّ فوق اللومْ
والخيرْ ، جميع الخير لقمهْ ، وعافيه ، ونومْ
يا ليل ، يا ليل ، يا ليـــل ما تنجلي يا ليـــل

* * *

ولم تختر الأقدارُ إلا زبالا تُرسِلُ فى لسانه سخريتها بذلك الباشا وبنت ذلك الباشا . . . !

وكسرُ قلبٍ بكسرِ قلبٍ وحَطْمُ نَفْسٍ بحطْم نفسِ
ورُبَّ عِزٍّ تراه أمسى كُناسةً هُيِّئَتْ لِكَنْسِ . . . !

(لنظا)

مصطفى صادق الرافعى